مراتب النحويين

لأبي الطيب اللغوي

(ت ٣٥١هـ)

عرض وتحليل

الدكتور محسن هاشم درويش

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد:

فهذه ورقات سلطت فيها الضوء على كتاب مهم من كتب التأليف في التراجم والطبقات ، في مرحلة التأليف المنظم ، ألا وهو كتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيب عبد الواحد الحلبي (ت ٣٥١هـ).

وتتأتى أهمية هذا الكتاب في قدمه وقدم مؤلفه أولاً ، وغزارة مادته –على صغر حجمه– ثانياً ، وكونه مصدراً أصيلاً اعتمد عليه جُل مَن جاءِ من بعده وكتب في تراجم النحويين واللغويين ثالثاً .

وقد جعلت حديثي عن هذا الكتاب ينقسم الى مبحثين:

الأول : في المؤلِّف أبي الطيب اللغوي ، فقدمت بترجمة وافية له ، ولا سيما في الجوانب المتعلقة بثقافته وعلمه ، ومذهبه ومشربه في اللغة والنحو ، لأنها مفتاح شخصيته ، ومفتاح مغاليق كتابه (مراتب النحويين) وأسراره بل سائر كتبه .

ومن خلال ذلك نستطيع أن نكوِّن فكرة عامة عن كتابه المراتب وطريقة تأليفه وترتيبه ، ومنهجه في إيراد المعلومات ، وبيان المآخذ التي تؤخذ عليه .

أما المبحث الآخر فكان في المؤلَّف (مراتب النحويين) ، تناولت فيه الحديث عن منهج الكتاب ودوافع تأليفه ، وطريقته في سرد المعلومات ، ورواية الروايات ، ثم تكلمت على قيمة الكتاب العلمية وطبعاته المحققة ، وأهم المآخذ عليه .

هذا ما بدا لي عرضه حال تحليلي الكتاب ، ومن الله تعالى وحده أستلهم التوفيق إلى الصواب .

د. محسن هاشم عبد الجواد درويش

المبحث الأول

المؤلِّف

(أبـو الطيب اللغوي)

١- ولادته ونشأته :

أبو الطيب اللغوي هو عبد الواحد بن علي العسكري الحلبي (١)، ولد في عسكر مُكرم (٢)، فيها ولد ونشأ ، لم تشر المصادر التي بين أيدينا إلى تاريخ ولادته أو شيء عن نشأته ودراسته الأولى ، إلا إنها تذكر أنه قدم إلى بغداد ، وأنه أخذ عن أبي عمر الزاهد ، ومحمد بن يحيى الصولي ومع ذلك لم تذكر لنا المصادر شيئاً عن وقت قدومه إلى بغداد أو مدة إقامته فيها ، والأرجح انه لم يستطع الأخذ عن ابن دريد (ت ٣٢١هـ) لصغر سنه ، مما يدل على انه كان في أواخر أيام ابن دريد صغيراً (٣) ، وبعد أن أقام فترة في بغداد واخذ عن علمائها تركها وتوجه إلى حلب ، والذي يظهر أنه توجه إليها زمن سيف الدولة الحمداني أي بعد سنة (٣٣٣هـ) ، وهي السنة التي انتزع فيها سيف الدولة حلب من احمد بن سعيد الكلابي (٤) .

وكانت حلب في تلك الأيام تحفل بالعلماء والشعراء والأدباء ، ولا سيما ان أميرها سيف الدولة الحمداني كان أميراً أديباً محباً مشجعاً للعلم والعلماء ، فاجتذب إليها أعيان الأدب واللغة والشعر ، كالمتنبي وابن خالويه والفارابي وأبي الطيب ، فازدهر علم ابي الطيب في حلب

وظهرت المنافسة بل الخصومة بينه وبين ابن خالويه .

يروي أبو العلاء المعري فيقول :" حدثني الثقة انه كان في مجلس أبي عبد الله بن خالويه ، وقد

---

(١) ينظر : بغية الوعاة للسيوطي ص ٣١٧ ، وأعلام النبلاء ٤/ ٣٦

(٢) بلد مشهور في نواحي خوزستان منسوب إلى مكرم بن معزاء صاحب الحجاج ، أرسله الحجاج لمحاربة خرزاد بن باس ، بناها وسماها عسكر مكرم ، وقد نسب اليها قوم من أهل العلم منهم العسكريان : أبو أحمد الحسن بن عبد الله اللغوي وتلميذه أبو هلال العسكري ،

ينظر : معجم البلدان ٤/ ١٢٣

(٣) ينظر : أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة ص ١٧-١٨ .

(٤) ينظر : وفيات الأعيان ٣/٧٩

جاءه رسول سيف الدولة يأمره بالحضور ويقول له: قد جاء رجل لغوي يعني أبا الطيب هذا"(١).

٢- شيوخه وثقافته :

تكاد تجمع المصادر التي ترجمت لأبي الطيب أنه اتصل في رحلته إلى بغداد بمحمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٥هـ) ، وأبي عمر الزاهد (ت ٣٤٥هـ) وأخذ عنهما (٢) ، فيذكر ابن القارح في رسالته :" قال أبو الطيب : قرأت على أبي عمر الفصيح وإصلاح المنطق حفظاً "(٣)، هذا إضافة إلى ما يرويه أبو الطيب نفسه عنهما في كتابه (مراتب النحويين) (٤) ، ومن خلال هذا وذاك يتبين صحة أخذ أبي الطيب عن أبي عمر الزاهد والصولي .

ويرى بعض الباحثين المعاصرين أن أبا الطيب قد تأثر أكثر ما تأثر بشيخه أبي عمر الزاهد في مجال اللغة إلى حد أنه نحا نحوه في بعض كتبه ، كما أنه ألف كتابه (شجر الدر) على غرار كتاب (المداخل) لأبي عمر الزاهد (٥) .

" ومن الغريب أن تجمع المصادر التي ترجمت لأبي الطيب على ذكر أن أبا الطيب أخذ عن هذين الشخصين ولم تذكر شيئاً عن غيرهما ممن أخذ عنهم ، على حين نجد أنه أخذ عن آخرين شافههم وأخذ عنهم ، ويظهر ذلك واضحاً من قوله : أخبرنا ، أو: حدثنا ، فهو يذكر الى جانب الزاهد والصولي : أبا الفضل جعفر بن محمد بن الحسن بن بابتويه (٦) ، وعبد القدوس بن أحمد التستري ، وعبد العزيز بن يحيى ، وعلي بن محمد الخداشي ، وأبا سلمة حمدان بن الحسن الرافعي ، وعلي بن إبراهيم البغدادي ، وأبا روق الهزاني ، وعبد العزيز بن سلامة ، والحسين بن صالح . كل هؤلاء أخذ عنهم وروى ، إلا أنني لم أستطع أن أجد ما يشير الى كيفية التقائه بهم ، وأخذه عنهم ، بل لم أستطع العثور على ترجمة لواحد منهم .

وعلاوة على ذلك نستطيع القول إن أبا الطيب قرأ كثيراً من كتب عصره ومن سبقوه ، يدل

---

(١) رسالة الغفران ص ٥٥١

(٢) بغية الوعاة ٣١٧ ، أعلام النبلاء ٤ / ٣٦

(٣) رسالة ابن القارح في مجموعة رسائل البلغاء ص ٢٧٦

(٤) ينظر : ص ٢١ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ...

(٥) ينظر : أبو الطيب اللغوي ص ١٩

(٦) ذكره في (الأضداد) ١٩٣/١ ، وفي (الاتباع) ص ٥١ ، وهما كتابان من كتب أبي الطيب وآثاره التي وصلت إلينا كما سيتبين عند =

على ذلك كثرة ما روى في كتبه منسوباً إلى اللغويين الذين سبقوه في هذا الباب ، فثقافته إذن ثقافة اللغويين وعلماء العربية من أهل زمانه ، وعلمه علمهم ، إن لم نقل إنه زاد عليهم لكثرة ما روى وما تعرض له من ظواهر خطيرة في اللغة (١) .

ويروي ابن القارح في رسالته عن أبي الطيب مما يدل على علمه الواسع في اللغة ، وعلو كعبه ، وسعة باعه فيها ، وحفظه القوي ، فيقول :" حدثني أبو علي الصقلي قال : كنت في مجلس ابن خالويه ، إذ وردت عليه من سيف الدولة مسائل تتعلق باللغة فاضطرب لها ، ودخل خزانته ليبحث عنها ، فتركته وذهبت إلى أبي الطيب اللغوي وهو جالس ، وقد وردت عليه تلك المسائل بعينها ، وبيده قلم الحمرة ، فأجاب به ، ولم يغيره ، قدرةً على الجواب"(٢) .

أما المادة اللغوية التي يذكرها أبو الطيب في كتبه فقد استقاها –إضافة إلى ما سبق– من أئمة اللغة ورواتها الذين يذكرهم في كتبه وينسب إليهم بعض تلك المادة ، فمن هؤلاء الأئمة : سيبويه (ت ١٨٠هـ) ، والكسائي(ت ١٨٩هـ) ، ويحيى بن المبارك اليزيدي(ت ٢٠٢هـ)، ومحمد ابن المستنير قطرب (ت ٢٠٦هـ) ، ويحيى بن زياد الفراء(ت ٢٠٧هـ)، وأبو عمرو الشيباني(ت ٢١٠هـ) ، وأبو عبيدة(ت ٢١٠هـ) ، وأبو زيد الأنصاري(ت ٢١٤هـ) ، والأصمعي(ت ٢١٦هـ) ، وابن الأعرابي(ت ٢٣١هـ) ، وأبو نصر الباهلي(ت ٢٣١هـ) ،وأبو حاتم السجستاني(ت ٢٥٥هـ) وغيرهم(٣) .

أما في مجال النظم والشعر فيذكر أبو العلاء المعري أنه :" قد كان أبو الطيب يتعاطى شيئاً من النظم "(٤) ، إلا أنه لم يصل إلينا من شعر أبي الطيب إلا ما رواه بعض المترجمين له(٥) .

وهو عينه الذي ذكره أبو الطيب في (مراتب النحويين) ، وهذه أبيات من شعره المشار إليه :

= الكلام على آثاره – إن شاء الله – .

(١) أبو الطيب اللغوي ص٢٠

(٢) رسالة ابن القارح ص ٢٧٦

(٣) ينظر : أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة ص ٢١

(٤) رسالة الغفران ص ٥٥٢

(٥) ينظر : أعلام النبلاء ٤/ ٣٨

يقول:

" أُلِمَّ بربع الدار بان أنيسه

على رغم أنف اللهو قفراً بذي الخال

مساعد خلٍّ أو مقضي ذمةٍ

ومحيي قتلي بعد سكانه خال

خلا منهمُ من حيث لم تخل مهجتي

ولم يخل من نؤي وأورق كالخال

وكم جلَّلت أيدي النوى وصروفها

على الزمن الخالي المحبين بالخال

تبصَّر خليلي الربع شُيِّعت دائماً

بقلب من الوجد الذي حل بي خالي

ألم تريني أُرعي الهوى من جوانحي

رياضاً كهمِّ المرء ذي النَّعَم الخال

أذوق أمرَّيهِ بغير تكَرُّهٍ

مذاقه موفورٍ على جرعة خال

وأسكن منه كل وادٍ مضلةٍ

وآلف رَبعاً ليس من مألف الخالي"(١)

ومن الواضح أن الأبيات ليست شعر شاعر فلا روح ولا عاطفة فيها ، بل هي نظم عالم لغة كان يتعمَّد أن يأتي بكلمات معينة ويتكلفها ليبين قدرته ومعرفته في اللغة ومفرداتها .

هذا كل ما نعرف عن نظم أبي الطيب ، أما نثره فنستطيع أن نتبينه في كتبه، فبالرغم من أنه تعمد فيها الجمع والرواية عن الآخرين ، إلا أننا نستطيع أن نلمح بوضوح في مقدمات كتبه

---

(١) مراتب النحويين ص ٦٤

قدرته على الكتابة والتعبير ، فهو يتخير ألفاظه ويحكم نسجها فتبدو منسجمةً في تركيبها ، واضحة في معانيها(١) ، فها هو يقول في مقدمة كتابه (مراتب النحويين) :

" أمتعني الله ببقائك ، وحسن الدفاع عن حوبائك ، ووفقك في دينك ورأيك ، وجعلك لكل خير سببا ، ورزقك إليه مذهبا ... "(٢).

٣- تلاميـذه :

لم تذكر المصادر التي ترجمت لأبي الطيب اللغوي تلاميذ تتلمذوا له ، أو أخذوا عنه ! ، بيد أن بعض الباحثين يذكر أن ابن القارح من تلاميذ أبي الطيب(٣)، لكن ابن القارح نفسه عدد في رسالته شيوخه الذين أخذ عنهم ، فذكر ابن خالويه ، وأبا الحسن المغربي ، وأبا علي الفارسي وغيرهم ، ولم يذكر أبا الطيب من بينهم .

" وأهم من كل هذا هو أن مولد ابن القارح كان سنة ٣٥١هـ ، وهي السنة التي توفي فيها أبو الطيب فمن المستبعد أن يكون تلمذ له أو رآه .

وفي رسالة ابن القارح نفسها يروي أن أبا علي الصقلي كان يتردد على أبي الطيب ، بل كان من المعجبين به كما يبدو من روايته ، إلا أني لا أستطيع الجزم بكونه تلميذاً له ، لعدم وجود نص يؤكد ذلك ، ولأنه كان يتردد على ابن خالويه أيضاً في نفس الوقت ، ويظهر أنه كان يختلف إليهما ، كصديق لهما "(٤).

٤- مذهبه في اللغة والنحو :

المنعم النظر في كتب أبي الطيب ولا سيما كتابه (مراتب النحويين) يستطيع أن يتبين بجلاء أنه كان بصري المذهب ، وذلك من خلال اعتماده على العلماء البصريين في الرواية عنهم ، والانتصار لآرائهم والأخذ بها ، وتعظيم أصحابها وإجلالهم ، وتفضيلهم على علماء الكوفة ،

---

(١) أبو الطيب اللغوي بتصرف يسير ص ٣٣

(٢) مراتب النحويين ص ١٧

(٣) هو عز الدين التنوخي في مقدمة كتاب (الإبدال) لأبي الطيب ، ص ٤٥

(٤) أبو الطيب اللغوي ص ٢٢

بل يجعل لهم الفضل في علم الكوفيين (١)،ونستجلي ذلك من خلال نصوص وتعليقات ذكرها في كتابه (مراتب النحويين) ، فها هو يقول في تفضيل البصريين على الكوفيين على الإطلاق :

" والذين ذكرنا من الكوفيين هم أئمتهم في وقتهم ، وقد بيَّنا منزلتهم عند أهل البصرة ، فأما الذين ذكرنا من علماء البصرة فرؤساء علماء ، معظَّمون غير مدافَعين في المصرَين جميعاً .

ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل أصغرهم في العلم بالعربية ، ولو كان لافتخروا به ، وباهوا بمكانه أهل البلدان ، وأفرطوا في إعظامه ، كما فعلوا بحمزة الزيات "(٢) .

ومن خلال مذهبه بل تعصبه لمذهبه البصري نستطيع أن نكشف الكثير من الجوانب التي أحاطت بكتابه (مراتب النحويين) ، وذلك من خلال رفعه شأن البصريين وعزو الفضل بأجمعه إليهم في جانب ، والحط من شأن الكوفيين والإنتقاص من علمائهم ، وجعلهم عالةً في علومهم على البصريين في جانب آخر .

بل إن المتصفح كتاب مراتب النحويين لأبي الطيب ليدرك من اللحظة الأولى أنه ألَّف كتابه هذا ، لبيان وتحقيق الهدف المشار إليه ، الذي ينم- في رأيي- عن عصبية وهوى وميل كامل للمدرسة البصرية وأعلامها .

ولنتأمل ما ساقه في ترجمة الإمام أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ)(٣) فيما رواه عن أبي حاتم قال :

" لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب ، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل ، إلا حكايات عن الأعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن ، وهو قدوتهم ، وإليه يرجعون "(٤) .

---

(١) ينظر :نفسه ص ٢٢

(٢) مراتب النحويين ص ٥١ ، وحمزة الزيات الكوفي هو القارئ المشهور أحد القراء السبعة المعروفين (ت ١٥٦هـ) ، ينظر في ترجمته : غاية النهاية في طبقات القراء ١ /٢٦١ .

(٣) رأس المدرسة اللغوية النحوية الكوفية ، وأحد الأئمة القراء السبعة المشهورين ، تنظر ترجمته في : نزهة الألباء ص ٥٨ ،معرفة القراء ص ١٢٠ ، تهذيب التهذيب ٧/ ٢٧٥.

(٤) مراتب النحويين ص ١٢٠-٢٢١

ثم إن أبا الطيب يعترف صراحةً أنه بصري الهوى ، فهو يذكر في حديثه عن لفظ (المرَيْطاء) أنه يعتَدُّ بما قاله البصريون فيقول :" والمريطاء الجلدة الرقيقة ما بين السرة والعانة حيث تمرُّط الشعر... وهي مؤنثة ،ولا نعلمه عن علمائنا البصريين إلا بالمد ."(١)

جدير بالذكر هنا أن بعض الدارسين قد عدُّوا أبا الطيب من علماء بغداد ، "لأنه تلقى العلم في بغداد ، وفي الفترة التي أصبحت فيها قبلة للعلماء ، إلا أنه لم يكن راضياً عن بغداد وعلمائها ، وكان يعد علم أهل البصرة وأهل الكوفة هو الأصل ، وأنه – أي العلم– تغير عندما انتقل إلى بغداد ، قال :

" فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً ، وغلب أهل الكوفة على بغداد ، وحدثوا الملوك فقدموهم ، ورغب الناس في الروايات الشاذة ، وتفاخروا بالنوادر ، وتباهوا بالترخيصات ، وتركوا الأصول ، واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم "(٢) .

ولا يخفى على القارئ ما في هذا الكلام من غمز لعلماء الكوفة ، وغمطٍ لحقهم ، وحط من قدرهم ، وفيهم من فيهم من العلماء الأكابر كالكسائي وغيره ، وأما ما عابه أبو الطيب على الكوفيين وعلى رأسهم الكسائي من أنهم دنوا من الخلفاء ، وحدثوا الملوك ، حتى صاروا شيئاً مذكوراً ! فهذا كلام يحسب للكوفيين وعلى رأسهم الكسائي لا عليهم ، إذ أن الكسائي كان مؤدب ولدي الخليفة العباسي هارون الرشيد كما تجمع على ذلك المصادر التي ترجمت له ، بل كان – إضافة إلى ذلك– معلم الخليفة نفسه(٣) ، والخليفة أياً كان لا يرتضي في هذا الأمر ولا في غيره إلا الأحسن والأكمل ، فما بالك إذا كان هذا الخليفة هارون الرشيد –رحمه الله– وفي عصر الخلافة الزاهرة ، والدولة العتيدة الباهرة ، وفي أمرٍ كان في رأس اهتمامات الدولة آنذاك وهو العلم والعلماء ، من نشر وتشجيع وترجمة ، واصطفاء للخلصاء والرؤساء من العلماء في مجالس الخليفة ، فكيف بمن يختاره الخليفة لتأديب ولديه ، وقرة عينيه ؟! .

---

(١) نفسه ص ٩٧

(٢) مراتب النحويين ص ١٤٤

(٣) ينظر : تاريخ بغداد ١١/ ٤١١

٥- وفاتــه :

توفي أبو الطيب اللغوي في سنة (٣٥١ هـ) في حلب ، وذلك بعد أن حاصرها الروم بقيادة الدمستق ، وبعد قتال عنيف استطاع أن يدخلها ، ويعيث فيها فساداً عريضاً ، فقتل معظم الرجال ، وكثيراً من النساء والأطفال وأخذ بعضهم ، وقتل كذلك جميع الأسرى الذين كانوا بحوزته من المسلمين ، وذلك على عادة أعداء المسلمين إذا ما تمكنوا منهم وغزوهم ، فكان أبو الطيب فيمن قتل مع أبيه في تلك المحنة ، ولعلها هي التي ذهبت بمعظم آثاره وأخباره (١) ــ رحمه الله وأباه ــ .

٦- كتبه وآثاره :

قدَّر الله تعالى أن تضيع جل آثار أبي الطيب وكتبه ، ولم يصل إلينا منها إلا القليل ."ولا شك أنه قد ضاع كثير من كتبه وتصنيفاته ، لأنّ الروم قتلوه وأباه في فتح حلب "(٢)

وهذه بعض كتبه التي وصل إلينا منها خبر :

١- كتاب الإبدال:

حققه الأستاذ عزالدين التنوخي ، ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق .

٢- كتاب الإتباع:

صنفه في بغداد ، حققه الأستاذ التنوخي وطبعه المجمع العلمي العربي بدمشق .

٣- كتاب الأضداد في كلام العرب:

حققه الدكتور عزة حسن ، وطبعه المجمع العلمي العربي بدمشق .

٤- شجر الدر:

حققه الأستاذ محمد عبد الجواد ، وطبعته دار المعارف بمصر ضمن سلسلة ذخائر العرب .

٥ - طبقات الشعراء:

ورد ذكره في (تاج العروس) للزبيدي (٣) ، ولم يذكره غيره ، وقد يكون أبو الطيب ألَّف في

---

(١) تنظر مقدمة تحقيق مراتب النحويين ص ٨

(٢) رسالة الغفران ص٥٥١

(٣) تاج العروس ٢/ ٣٤٨

طبقات الشعراء ، متأثراً بشيخه الصولي في جمعه لأخبار الشعراء وشعرهم كما تأثر بشيخه الزاهد في اللغة .

٦- الفروق:

وهو من كتبه اللغوية ، نقل عنه السيوطي في المزهر(١) ، ويظهر أنه يبحث في الفرق بين استعمال لفظة وأخرى .

٧- كتاب المثنى:

أشار إليه الأستاذ عزالدين التنوخي ، وحققه ، ونشره المجمع العلمي العربي بدمشق(٢) .

٨- مراتب النحويين:

وهو موضوع هذا البحث ، وسأتكلم عليه بشيء من التفصيل في المبحث الثاني الذي أفردته أساساً للكلام على هذا الكتاب – إن شاء الله – .

المبحث الثاني

المؤلَّف

(مراتب النحويين)

هذا الكتاب – كما يبدو من اسمه – ليس من كتب أبي الطيب اللغوية ، وإنما هو كتاب تراجم للنحويين المشهورين ، " ترجم فيه لأكثر من ستين من اللغويين والنحويين ، بصريين وكوفيين وغيرهم ، مبتدئاً من ظهور اللحن ، ووضع النحو زمن أبي الأسود مارّاً بعلماء المصرين البصرة والكوفة منتهياً بانتقال العلم إلى بغداد "(٣) .

أما الدافع من تأليف هذا الكتاب فقد بيَّنه أبو الطيب في خطبة كتابه ، فاخبر بأنه استجابة لشكوى بعض تلاميذه المتكررة مما يصل سمعه من الكلام في المفاضلة بين أهل العربية ،" وادعاء كل قوم تقدم من ينتمون إليه ، ويعتمدون في تأدبهم عليه ، وهم لا يدرون عمن روى ، ولا من روى عنه ، ومن أين اخذ علمه ، ولا من أخذ منه ، وقد غلب هذا على الجهال ، وفشا في

---

(١) المزهر ١/ ٤٤٧

(٢)ينظر : أبو الطيب وآثاره في اللغة ص ٢٤-٢٦

(٣) أبو الطيب اللغوي ص٢٧

الرذال "[1] .

ثم تابع أبو الطيب في مقدمته بذكر أمثلة على فشو الجهل بما ذكره فيقول :" حتى إنَّ كثيراً من أهل دهرنا لا يفرقون بين أبي عبيدة وأبي عبيد...ويحكون المسألة عن الأحمر ، فلا يدرون أهو الأحمر البصري ، أو الأحمر الكوفي..." [2] إلى أن يقول :" ولقد رأيت نسخة من كتاب (الغريب المصنف) على ترجمته ، (تأليف أبي عبيد القاسم بن سلام الجمحي) وليس أبو عبيد بجمحي ولا عربي ، وإنما الجمحي محمد بن سلام مؤلف كتاب (طبقات الشعراء) ، وأبو عبيد في طبقة من أخذ عنه..."[3] .

ثم يتابع أبو الطيب حديثه فيقول :" فلما اجتمع شكواك ما تشكيته إلى ما أرى الناس يتهافتون فيه خبط عشواء ، وصيد ظلماء ، ورأيتك إذا أجريت منه شيئاً انتقرته ، وأسرعت إلى تعليقه وافترضته ، أشفقت من لبس يدخل عليك فيه ، أو سهو يحملك على باطل تحكيه ، وأعيذ إخواني بالله مما لا يسرني في الأعداء ".

ولا أفرح به في البعداء ، وذوي الشنآن والبغضاء ، فرسمتُ لك في هذا الكتاب ما تقبح الغفلة عنه ، ولا يسع العقلاء جهله ، وجمعت ما خشيت من تفرقه عليك ، وخفت أن يصعب إلقاؤه إليك..."[4] .

منهج الكتاب :

من عنوان كتاب (المراتب) نستطيع أن نكوّن فكرة عامة عن مضمونه فكما قيل :
(المكتوب من عنوانه يُقرأ) ، فالرتبة والمرتبة في أصل اللغة هي : المنزلة[5] ، ومراتب النحويين أي: منازلهم وأقدارهم ، فهل هذا ما عناه أبو الطيب في كتابه ؟ هذا ما سيجيبنا عنه في آخر كتابه بكلمات لخّص فيها منهجه الذي اتبعه في ترتيبه للنحاة. قال :" فهذه جملة يُعرف بها مراتب

---

(١) مراتب النحويين ص ١٧

(٢) نفسه ص ١٧-١٨

(٣) نفسه ص ١٨

(٤) مراتب النحويين ص ١٨-١٩

(٥) ينظر : لسان العرب والقاموس المحيط ، كلاهما مادة (رتب) .

علمائنا ، وتقدمهم في الأزمان والأسنان ، ومنازلهم من العلم والرواية .."[1] .

فمعنى (مراتب) إذن عند أبي الطيب هو منازل كما هو المعنى اللغوي للكلمة ، ثم ينسحب هذا المعنى على ما عقد عليه كتابه ، فهو كتاب مرتب على بيان منازل ورتب العلماء وفق معيارين :

الأول : معيار زماني ، ويؤخذ ذلك من قوله :(وتقدمهم في الأزمان والأسنان)

الثاني : معيار علمي ، من حيث منازل هؤلاء العلماء الذين تناولهم بالترجمة من العلم وسعة الرواية .

ويمكنني أن أضيف معياراً آخر اعتمده أبو الطيب في كتابه (مراتب النحويين) وذلك من خلال فحص الكتاب فنلاحظ فيه معياراً مكانياً ، بحيث أنه يقدّم علماء البصرة على علماء الكوفة دائماً وذلك من خلال ترتيب التراجم ، بعد ذكره أبا الأسود الدؤلي بعد ظهور اللحن في الكلام ، فابتدأ بعبد الله بن أبي اسحاق وأبي عمرو بن العلاء ، فعيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، وهكذا حتى يأتي على أبي جعفر الرؤاسي وعاصم القارئ ، فنلاحظ أنه راعى المعيار الزماني من خلال المعيار المكاني ، ثم يعود للكلام على الخليل ومعاصريه وتلاميذه من اللغويين والنحويين من البصريين .

وهذا جلي نتبينه من قوله :(..وتقدمهم في الأزمان والأسنان)...

ولقائل أن يقول : إنَّ أبا الطيب إنما بدأ في كتابه بالبصريين ، لأن النحو في البصرة كان أقدم نشوءاً منه في الكوفة[2] ، لكن هذا الكلام قد يدفعه ما سنراه من تعصب وهوى واضح للبصريين عند أبي الطيب كما سيأتي – إن شاء الله – عند الكلام على مآخذ الكتاب .

أما طريقة أبي الطيب في إيراد المعلومات فهي طريقة المحدِّثين في رواية الإسناد ، فلقد" أكثر أبو الطيب الروايات المسندة ، والتي رواها عن شيوخه ومن شافههم مما جعل الكتاب أوثق من غيره من كتب الطبقات ، وفي الكتاب نجد أن أبا الطيب يبين لنا مذهبه فهو بصري ، وهو يرفع أهل البصرة من العلماء ، ويمجدهم ، ويرد فضل المبرزين من أهل الكوفة من العلماء إلى علماء البصرة .

---

(١) مراتب النحويين ص ١٦١

(٢) ينظر : المدارس النحوية د. خديجة الحديثي ، ص٩

أما الرواة الذين روى عنهم فهم : أبو روق الهزاني ، وجعفر بن محمد ، والحسين بن صالح ، وحمدان بن الحسين الرافعي ، وعبد العزيز بن سلامة ، وعبد العزيز بن يحيى ، وعبد القدوس بن أحمد التستري ، وعلي بن إبراهيم البغدادي ، وعلي بن محمد الخداشي ، ومحمد بن عبد الواحد الزاهد ، ومحمد بن يحيى الصولي .

ومن الملاحظ أن هؤلاء الرواة لم يذكرهم أبو الطيب في كتبه الأخرى ، ولم يَروِ عنهم كما أنّ كتب التراجم التي ترجمت له لم تشر إلى أنّ أبا الطيب أخذ عن غير محمد بن عبد الواحد الزاهد ، ومحمد بن يحيى الصولي"(١) .

قيمة الكتاب العلمية :

يُعد كتاب (مراتب النحويين) من الكتب المتقدمة زمنياً في مجاله ، ولا سيما أن جُل مَن ألَّف بعد أبي الطيب في تراجم اللغويين والنحاة قد اعتمد عليه في توثيق مادته العلمية ، فكتاب أبي الطيب يعد من حيث السياق الزمني ثالث كتاب في موضوع تراجم مشاهير اللغة والأدب ، فهو الثالث بعد كتاب (طبقات فحول الشعراء) لمحمد بن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) ، وكتاب (المعارف) لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)(٢) ، ويعد (مراتب النحويين) و (طبقات النحويين اللغويين) للزبيدي "من المصادر الأصيلة الأولى لمن ترجم لأعلام اللغة والنحو والأدب ، وعنهما نقل ياقوت والقفطي والصفدي والسيوطي وغيرهم "(٣) .

هذا ، وقد طبع كتاب (مراتب النحويين) بتحقيق الاستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، ونشرته دار نهضة مصر للطبع والنشر مرتين ، الأولى: سنة ١٣٧٥هـ=١٩٥٥م ، والأخرى سنة ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م ، يقول محققه في وصف نسخة الكتاب الخطية :" وأصل هذا الكتاب نسخة نادرة في دار الكتب المصرية برقم ١٤٢٥ تاريخ تيمور ، تقع في ١٦٤ صفحة ، كتبها عيسى بن أبي بكر بن محمد الحميدي ، ثم قوبلت على أصل صحيح ، عليه حواش لابن

---

(١) أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة ص ٢٨-٢٩

(٢) ينظر : المدارس النحوية ص ٧-٨

(٣)مقدمة تحقيق مراتب النحويين ص ٥.

نوبخت ، وفي آخرها خط الشيخ محمد بن المخلطة المالكي وتاريخه ٨٦١ ، وخط الشيخ محمد عبد العزيز الشافعي ، وقد سقط من هذه النسخة ورقة بعد ص ١٥٨ .

وقد قمت بتحقيق هذا الكتاب على تلك النسخة ، وقابلتها بما نقله السيوطي عنه في المزهر ، وأكملت الناقص منه ، وأثبت فروق النسخ التي وردت في الحواشي.."(١) .

مآخذ على الكتاب :

المتصفح كتاب (مراتب النحويين) لأبي الطيب ، يخرج بنتيجة منذ الوهلة الأولى وهي أن أبا الطيب –رحمه الله– قد أظهر تعصبه الشديد للبصريين ، بل يعزو كل فضل للكوفيين إلى البصريين ، وهذا – في رأيي– من باب بخس الناس أشياءهم ، وأقل ما يقال فيه إنه تعصب غير مرضي من إمام عالم كبير كأبي الطيب ، وإن صفحات الكتاب لتكاد تنطق بذلك ، وسأورد بعض النماذج التي تعكس حقيقة ذلك التعصب ، والتي فيها انتقاص كبير من علماء الكوفة وقرائهم وأئمتهم ومحاولة الحط من قدرهم وغمزهم بما لا يليق به وبهم ، حتى يتراءى للقارئ بأن الكوفيين لولا علم البصريين لكانوا نسياً منسياً ، ولم يكونوا شيئاً مذكوراً أبداً ! ، على أني قد أشرت إلى هذا التعصب وأوردت بعضاً من الأنموذجات التي تعكس طبيعته ومجراه عند الكلام على مذهبه ومشربه في اللغة والنحو ، وهنا أورد بعضاً آخر من تلكم النصوص التي تثبت ما أدَّعيه .

يقول أبو الطيب في ترجمة الإمام حمزة بن حبيب الزيات (١٥٦هـ):" حدثنا جعفر بن محمد ، قال : حدثنا إبراهيم بن حميد قال : سألت عن حمزة أبا زيد والأصمعي ويعقوب الحضرمي وغيرهم من العلماء ، فأجمعوا على أنه لم يكن شيئاً ، ولم يكن يعرف كلام العرب ولا النحو ، ولا كان يدَّعي ذلك ، وكان يلحن في القرآن ولا يعقله ، يقول : (وما أنتم بمصرخيِّ)(٢) ، بكسر الياء المشددة ، وليس ذلك من كلام العرب ونحو هذا من القراءة .

قال أبو حاتم : وإنما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون ، فقد صيَّره الجهال من الناس شيئاً

---

(١) مقدمة محقق (مراتب النحويين) ص ١٠

(٢) سورة إبراهيم (٢٢)

عظيماً بالمكابرة والبهت... وكيف يكون رئيساً وهو لا يعرف الساكن من المتحرك ، ولا مواضع الوقف والاستئناف ، ولا مواضع القطع والوصل والهمز ، وإنما يُحسن مثل هذا أهل البصرة ، لأنهم علماء بالعربية ، قراء رؤساء !"(١) .

وكان أبو الطيب قد قدّم لترجمة حمزة الزيات قبل أن يروي ما رواه من اجتراء وافتراء وتقوّل على إمام كبير من الأئمة القراء السبعة الذين أجمع كل أهل مصر على قراءتهم ، قال أبو الطيب في مستهل ترجمة الإمام حمزة حتى لا نستطيع أن نبرئه فنقول: إنه مجرد ناقل :".. فإنَّ أهل الكوفة يتخذونه إماماً معظّماً مقدّماً ، وليس يُحكى عنه شيء من العربية ولا النحو ، وإنما هو صاحب قراءة ، وأما عند البصريين فلا قدر له "(٢)!

وقال في ترجمة أبي جعفر الرؤاسي :" وممن أخذ عن أبي عمرو ، وأبو جعفر الرؤاسي عالم أهل الكوفة ، وليس بنظير لهؤلاء الذين ذكرنا(٣) ، ولا قريب منهم ، أخبرنا جعفر بن محمد قال : أخبرنا إبراهيم بن حميد قال : أخبرنا أبو حاتم قال : كان بالكوفة نحوي يُقال له أبو جعفر الرؤاسي ، وهو مطروح العلم ليس بشيء "!(٤) .

ويقول في ترجمة محمد بن محيصن :" وكذلك ابن محيصن ، كان يحسن شيئاً يسيراً من جليل النحو فسقط ، وكان من أهل مكة ، واسمه محمد ، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ، ويزعمون أن كثيراً من علمهم وقراءتهم مأخوذ عنه "(٥) .

وقال في ترجمة الإمام الكسائي :" أخبرنا عبد القدوس بن احمد ومحمد بن عبد الواحد قالا: أخبرنا ثعلب قال: أجمعوا على أنّ أكثر الناس كلهم رواية وأوسعهم علماً الكسائي ، وكان يقول : قلّما سمعت في شيء (فَعَلْتُ) إلا وقد سمعت فيه (أفعَلْت) ، قال أبو الطيب : وهذا الإجماع الذي ذكره ثعلبٌ إجماع لا يدخل فيه أهل البصرة .

---

(١) مراتب النحويين ص ٥٢-٥٣

(٢)مراتب النحويين ص ٥٢

(٣)أي : من البصريين

(٤) مراتب النحويين ص ٤٨

(٥)نفسه ص ٤٩

أخبرنا جعفر بن محمد قال : أخبرنا أحمد بن غياث النحوي قال : أخبرنا أبو نصر الباهلي قال : حمل الكسائي إلى أبي الحسن الأخفش خمسين ديناراً ، وقرأ عليه كتاب سيبويه سرّاً "(١).

ولا أشك في أن تكون مثل هذه المرويات وأشباهها من صنع الرواة ، ووضع المغرضين ، الذين كان أكبر همهم أن يُعلوا من شأن البصريين وأنهم أرباب القدح المعلّى ، وأنَّ مَن سواهم عالة عليهم في العلم والفهم ، فلا يدانيهم أهل الكوفة ، ولا يجاريهم أحدٌ من العالمين ..!!،وإن يقولون إلا شططاً ! .

---

(١) مراتب النحويين ص ١٢٠

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم .

٢ - الإبدال : لأبي الطيب اللغوي ، تحـ عز الدين التنوخي ،ط ، المجمع العلمي العربي ـ دمشق ، ١٩٦٢م.

٣ - أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة : عادل أحمد زيدان ، ط١ ، مطبعة العاني ـ بغداد ، ١٩٧٠م .

٤ - الإتباع : لأبي الطيب اللغوي، تحـ عز الدين التنوخي ، ط١ ، المجمع العلمي العربي – دمشق،١٩٦١م.

٥ - الأضداد في كلام العرب : لأبي الطيب اللغوي ، تحـ د.عزة حسن ، ط، المجمع العلمي العربي ـ دمشق ، ١٩٦٣م.

٦ - أعلام النبلاء : محمد راغب الطباخ ، ط، المطبعة العلمية ١٩٢٥م.

٧ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : للسيوطي (ت ٩١١هـ) ، ط ، مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٢٦هـ.

٨ - تاج العروس : لمحمد بن مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) ، ط١ ، المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ.

٩ - تاريخ بغداد أو (مدينة السلام) : للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، ط ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، بدون تاريخ.
١٠ - تهذيب التهذيب : لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، ط، دار الفكر ــ بيروت، ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.
١١ - رسالة ابن القارح : لأبي الحسن علي بن منصور بن القارح ، ضمن مجموعة (رسائل البلغاء)، ط٤ ، اختيار محمد كرد علي ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٤م.
١٢ - رسالة الغفران : لأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ)، تحـ د. عائشة عبد الرحمن ، ط٣ ، دار المعارف ــ مصر .
١٣- غاية النهاية في طبقات القراء : لمحمد بن محمد بن الجزري (ت ٨٣٣هـ) ، عُني بنشره ج . براجستراسر ، ط٣ ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م .
١٤-القاموس المحيط : للفيروز أبادي (ت ٨١٧هـ) ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ــ بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
١٥-لسان العرب : لابن منظور المصري (ت ٧١١هـ) ، ط دار صادر ــ بيروت ،بدون تاريخ.
١٦-المدارس النحوية : د. خديجة الحديثي ، ط٢ ، جامعة بغداد ، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.
١٧-مراتب النحويين : لأبي الطيب اللغوي ، تحـ محمد أبوالفضل إبراهيم ، ط٢ ، دار نهضة مصر ــ القاهرة ، ١٣٩٤هـ=١٩٧٤م.
١٨-المزهر في علوم اللغة وأنواعها : للسيوطي ، تحـ محمد طه المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط٤ ، مطبعة عيسى الحلبي ــ القاهرة ، ١٩٥٨م.
١٩-معجم البلدان : لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، ط دار صادر-بيروت ،١٤٠٤هـ= ١٩٥٧م.
٢٠-معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار : للذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحـ د. بشار عواد وصاحبيه ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ١٤٠٨هـ=١٩٨٥م.

٢١-نزهة الألباء في طبقات الأدباء : لأبي البركات بن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) ، تح د.ابراهيم السامرائي ، ط٣ ، مكتبة المنار – الزرقاء – الأردن ،١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.
٢٢-وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان : لابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ، تح د.إحسان عباس، ط دار صادر – بيروت ،د.ت.